CC BY

فتوة الحرافيش والزعار والعياق في مصر في عصر سلاطين المماليك وتأثيرهم في المجتمع

شهم فالح حميد السلطان *

تأريخ التقديم: 2022/4/20 تأريخ القبول: 2022/5/28

المستخلص:

تناول التراث الشعبي ظاهرة اللصوصية التي مثلها فئة من المجتمع المصري الَّتي أُطلق عليهم تسميات عديدة منها: الصعاليك، والشطَّار، والعيَّار، والفتيان، والزعَّار، والعيَّاق، والحرافيش وأَصحاب المهن المحقرة وأَشباههم من المعدمين والفقراء والجياع والعاطلين عن العمل الذين طحنهم الفقر وأعجزتهم البطالة، بسبب سوء تدبير الزعماء الحكام، وقد جمع بينهم تاريخيًا واجتماعيًا في دائرة اجتماعية منبوذة طبقيًا واجتماعيًا، فهي فئة تعيش على هامش المجتمع، في حالة صراع المجتمع الذي رفضهم فما كان منهم إِلَّا أَنَّهم رفضوا واقعهم المرير، وتمرَّدوا على مجتمعهم، وحاولوا القيام بالثورة للتأثير في تلك المجتمعات؛ لينالوا بأسلوب غير شرعي ما يتصورون أَنَّه حق شرعي لهم، في عصر سلطنة المماليك عندما حاولوا، فرض واقعهم على المجتمع.

الكلمات المفتاحية: مصر، مماليك، سلاطين، الحرافيش، الزعار.

المقدمة :

يطلق اسم الصعاليك على جماعة من العرب القدامى، حيث عاشوا في الجاهلية قبل الإسلام وذاع صيتهم في الجزيرة العربية كلها، وهم من قبائل مختلفة من العرب، خرج كل واحد منهم على سلطة القبيلة، ورفض عاداتها وواجباتها واختار العراء سكناً له خاصة بعد طردهم من قبائلهم لمعارضته لحكم القبيلة، إذ كان معظم صعاليك الجاهلية شعراء مجيدين كتبوا العديد من القصائد من عيون الشعر العربي، ومن اهم شعراء الصعاليك الشنفري، السليك بن سلكة، عروة بن الورد، وتابط شراً.

* مدرس/ قسم التاريخ/كلية الآداب/جامعة الموصل.

شكلت الاضطرابات السياسية وانعكاسها السلبي الأوضاع الاقتصادية في بروز مشكلات اجتماعية كبيرة وخطيرة تمثلت في بروز فئات اجتماعية دفعتها الفاقة والجوع والفقر اعلان عصيانها على الواقع المرير الذي تعيشه فظهر نتيجةً لذلك تسميات اطلقت على فئات منهم كان من بينهم يمكن استعراضها على النحو الاتي :

الحرفوش : عرف الحرفوش على انه هو " ذميم الخلق والخلق " ويمكن تعريفه على انهم فئة من الطبقات الدنيا في المجتمع استغلت تشجيع المماليك للتيار الصوفي الداعي إلى الزهد فانخرطوا في هذا التيار طمعا في رزق ثابت مما كان يوقف على هذه التكايا والربط والخانقات بعد ان كانوا يتكسبون من مصاحبة الجيوش عند الجهاد ...

ولعل بوادر هذه الظاهرة في الحضارة الاسلامية منذ عهد الخليفة العباسي الثالث في خلافة المهدي (158–169هـ) فيذكر البلاذري عن بدايات هذه الظاهرة بالقول " فلما كثر الصعاليك والزعار والعيارون وانتشروا بالجبل في خلافة المهدي، جعلوا هذه الناحية ملجأ لهم وحوزوا فكانوا يقطعون الطريق ويأوون اليها فلا يطلبون" [1]

وأَنَّهم في إِبَّان الفتن الداخلية لم يتورعوا عن التلصص فكانوا ينهبون بيوت الأُمراء والمماليك فقط وبذلك يمكن وصفهم ضمن الطوائف المتمردة التي توسلت بالنهب للتعبير عن رفضهم للواقع الاجتماعي والاقتصادي آنذاك. وهم بهذا الوصف جزء من طوائف المتلصصة وأنهم بهذا المعنى اكتسبوا صفة البطولة في التراث الأدبي الشعبي .

الزعار: تسمية اطلقها المؤرخون للدلالة على طائفة من العوام لعبت دورا مماثلا تماما لدور العيارين في العراق والأحداث في بلاد الشام هذه الطائفة هي طائفة الزعار وهي تعني لغويا – المقاتلة الذين يظهرون ويختفون فجأة ... وهذا يعني أن ظهورهم مرتبط بظهور الأزمات والفتن .

وقبل الحديث عن الحرافيش مصر والقاهرة وزعارها وعياقها ثمة ملاحظتان جديرتان بالإشارة الاولى : أن مصر الفاطمية عرفت فكرة "الأَحداث" في أَواخر القرن الرابع الهجري ولعلها وصلت اليها عن طريق الشام ونحن نجدها على اية حال هناك في مطالع عهد الحاكم بأمر الله حوالي سنة 390هـ/ 999 م في حادث واضح يقول يحيى بن سعيد

(1) البلاذري: مختصر كتاب البلدان ،239–240

الانطاكي"..... فقد كان الرعايا والرعاع يجتمعون في الاسواق بين يدي الحاكم فيتصارعون ويتدافعون ويتلاكمون فاقتضى ذلك وقوع حرب شديدة بين احداث مصر واحداث القاهرة لأن صار عصبة لرجلين كانا يتصارعان بين يديه وقعت الحرب بينهم في موضع البحر التي تعرف بقبر الحمار وافترقوا في ذلك اليوم وبعد ثلاثة أَيَّام اجتمعوا على وعد كان بينهم في اللقاء، وقد حملوا السلاح وأَعدُّوا آلات الحرب واقتتلوا قتالًا شديدًا وقتل من الفريقين جماعة كثيرة وانهزم أهل مصر وتبعهم أهل القاهرة وأخذوا ثياب النظارة ونهبوا القرافة والمعافر، وقتل الحاكم بأمر فهد بن ابراهيم الرئيس ... وأقر حسين بن جوهر على النظر في الأمر... [1] أَمَّا الملاحظة الثانية فهي أَنَّ مصر المملوكية عرفت كذلك نظام " الفتوة الرسمية " بانتقال الخلافة العباسية الصورية إِليها .

ففي سنة 659هـ/ 1260 م البس الخليفة العباسي المستنصر بالله (منصور ابن محمد الظاهر خليفة عباسي ولد في مدينة بغداد (٥٨٨هـ \ 1192م) كان ابن الظاهر بأَمر الله وحفيد الناصر لدين الله بنى المدرسة المستنصرية توفي سنة (640هـ/ 1246م)) الملك الظاهر بيبرس (ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري الصالحي لقب بابي الفتوح سلطان مصر والشام ورابع سلاطين الدولة المملوكية ولد سنة (616هـ/1221) وتوفي (676هـ/1277م)) سراويل الفتوة ([2] وهكذا راج أمر الفتوة بالمعنى الصوفي في مصر المملوكية. بشكل رسمي حتى درج سلاطين المماليك فيما بعد حتى القرن الرابع عشر على منح سراويل الفتوة للأمراء، والاعيان المصرين في بعض الأَحيان[3] وهو النظام الذي ضم في جانبه الشعبي وبخاصة في المراحل المتأخرة، الحرفيين والصناع والأصناف وغيرهم من العامة والباعة والسوقة والمعدمين وأشباه المعدمين والعاطلين وهي الطوائف التي شكلت عصب الحركات الشعبية في مصر المملوكية والعثمانية على ما أَمر الفتيان العيارين والشطار في بغداد والشام .

(1) شوقي عبد الحكيم: الحكاية الشعبية العربية ،130-142

(2) سيرة الظاهر بيبرس، 206/1

(3) نفس المصدر، 418/1-435

ومع ذلك فلم يؤثر أَن تسمى أصحاب الحركات الشعبية في مصر الإسلاميَّة بالأحداث أو الفتيان أو الصبيان وإنما تزعمها من اطلق عليهم المؤرخون اسم الحرافيش والزعار والعياق الذين أزدهر نشاطهم منذ اواخر العصر الايوبي وخلال العصرين المملوكي والعثماني فتحدثنا المصادر التاريخية عن جماعات شعبية مسلحة من الرجالة أطلق عليها اسم الحرافيش والزعار وقد وصفوا بماوصف به العيارون والشطار والفتيان بأنهم من الرعاع أو الدهماء او العوام أو " الحثالة العامية " او " الجعدية " أو "الأوباش" أو " الوغاء" أو " السفلة " أو أَراذل السوقة وانهم ليسوا الا متلصصة ونهابة ونقابة حرامية ومناسر وعياقًا وفديوية وسراقًا وشطارًا ودعارًا ومن طلبة الشر واهل الفساد ... إلى غير ذلك من اسماء وصفات ونعوت .

الحرافيش:

وهم من فئات المجتمع التي ظهرت في مصر وصفهم ابن بطوطة اثناء زيارته الشهيرة لمصر سنة 726هـ/1325م وصف مصر بأَنَّها: {الثغر المحروس، والقطر المآنوس، العجيبة الشآن الأَصليَّة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين، ومآثر دنيا ودين، كرمت مغانيها، ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها} "بانهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه، ودعارة" [1] وذكر لهم حكاية شاهدها، حين خرجوا على الملك الناصر، وثاروا عليه فما كان منه إِلَّا أَنَّ استجاب لمطالبهم، وذلك حين سجن الأمير طشطمر[2] المعروف بحمص اخضر(هو من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون، تولى نيابة صفد توفي سنة 742هـ/ 1341م)، فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا أسفل القلعة ونادوا بلسان واحد " يا أعرج النحس يعنون الملك الناصر، أخرجه فأخرجه " وقد انطلق تأييدهم لهذا الامير لأسباب نفعية [3] فماهي حقيقة هؤلاء الحرافيش الذين كانت تزخر القاهرة بالألاف منهم يهيمون بلا مأوى في الليل والنهار سوى الطرقات ((واجسامهم

(1) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ،24/2

(2) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، 38

(3) ابن أياس: بدائع الزهور ،558

عارية)) يتراوح عددهم بين خمسين الف ومائة الف [1] حتى ليموت الكثير من الحرافيش من شدة البرد [2] ثم ما حقيقة علاقتهم بالسلطة الحاكمة؟ او بالأحرى من هذه الطبقة العسكرية المنعمة التي ((ربت في ماء النعيم والسلطان وظله)) على حد تعبير ابن خلدون ...؟ والى اي مدى بلغت ((مشيخة الحرافيش)) من السطوة بحيث يخشاها السلاطين؟ او بقيمون لها وزنا؟ وهي المشيخة التي صارت تبذل الاموال للظفر بها بمعرفة السلاطين انفسهم (؟) في بعض مراحلها [3]

ولعله من الطريف الدال هنا أن السلطان قانصوة الغوري [4] حين خرج لمواجهة الزحف العثماني في معركة مرج دابق قرب حلب بقيادة القادة العثمانيين سلطان سليم الأول في سنة (922هـ/1516م) وكان من نتيجة المعركة تمزق جيش المماليك بسبب الخيانة وبسبب المدافع العثمانية " سافر معه شيخ المشايخ المسمى شيخ الحرافيش، وجنده وصنجقة وطبلة، وكان هو قدام طبل السلطان لما دخل إلى دمشق كما جرت به العوائد القديمة عند خروج التجاريد "الجيوش" [5] .

وإذا نظرنا إلى النص بسياقه نجد أن الطوائف " المهنية " التي رافق الجيش كثيرة كاكحالين والحدادين والنجارين ومغاني الدكة وأشباهم، فهل يعني انه شيخ مشايخ الطوائف والاصناف ومن بينها الطوائف الصوفية، إلَّا أَنَّ الجدير بالذكر هنا هو ان شيخ الحرافيش

(1) نفس المصدر، 558

(2) نفسه

(3) السخاوي: التبر المسبوك ،146

(4)الأشرف أبو النصر قانصوه من بيبردى الغوري الجركسي الأصل، هو من سلاطين المماليك البرجية. ولد سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م ثم امتلكه الاشرف قايتباي وأعتقه وجعله من جملة مماليكه الجمدارية ثم أصبح في حرسه الخاص وارتقى في عدة مناصب حتى ولي حجابة الحُجّاب بحلب وفي دولة الاشرف جنبلاط عين وزيرا. بويع بالسلطنة سنة٩٠٦هـ/١٥٠٠م وظل في ملك مصر والشام إلى أن قتل في معركة مرج دابق شمال حلب سنة 1516. كان الغوري مغرماً بالعمارة فازدهرت في عصره، واقتدى به أمراء دولته في إنشاء العمائر، وقد خلف ثروة فنية جلها خيرية، بمصر وحلب والشام والأقطار الحجازية. واهتم بتحصين مصر فأنشأ قلعة العقبة وأبراج الإسكندرية. وجدد خان الخليلي فأنشأه من جديد وأصلح قبة الامام الشافعي وأنشأ منارة للجامع الازهر. وله مجموعة أثرية مهمة في حلب مكونة من أبنية وجامع ومدرسة.

(5) السخاوي: التبر المسبوك ،1012

خرج بجنده وصنجقه وطبلة مع السلطان بل أَمامه كما جرت به العوائد القديمة عند خروج التجاريد، وهذا يعني انهم كانوا يشكلون قوة قتالية عسكرية أو حربية . وهو أمر يذكرنا بفرق الأَحداث والفتيان والعيارين أول امرهم قبل ان تسرحهم الدولة .

لغويًا تعني دورها العسكري، فابن منظور في معجمه يذكر: واحرنفشت الرجال إذا صارع بعضهم بعضًا واحرنفش الديك تهيأ للقتال " [1] .

وهو ماتؤيده المصادر التاريخية عند الكلام على الحرافيش ودورهم في جيش صلاح الدين، وقد وصفتهم بانهم فرقة من المطوعة لها قياداتها الخاصة تتقدم الجيش النظامي في الهجوم دون أن تكون جزأ اساسيا منه ويروي لنا المؤرخون امثلة حية من المقاومة الشعبية التي ابداها هؤلاء الحرافيش المصريين وكيف أنهم كانو يتحيلون في اختطاف العدو... بكافة الطرق التي تثير الدهشة والاعجاب [2] .

ونقرأ في حوادث سنة 635هـ/ 1237م في أثناء الصراع الذي نشب بين أبناء البيت الأَيوبي "فذهب الكامل ومعه الناصر لقتال الصالح في دمشق " " حيث خرج الصالح من غد ذلك اليوم بالحرافشة فأحرق العقيبة وأخرب أَيضًا قصر حجاج والشاغور وغيرهما وأصبح أصحاب الاملاك يشحذون وربما احترق البيت بأهله "[3].

أثناء حصار دمشق وهذا النص يؤكد أن "الحرافيش" كانوا في بداية امرهم من الفرق المقاتلة المستقلة عن الجيش الرسمي للدولة كما يفهم من سياق النص، حيث بقي الجيش العادل وكان لهم دور ايجابي في تحقيق الانتصارات وبث الرعب في جيش العدو، الأمر الذي هيأ مادة خصبة لحكاياتهم البطولية في السير والملاحم الشعبية العربية " سيرة الأَميرة ذات الهمة وسيرة الظاهرة بيبرس بخاصة "ولا شك أنَّ هؤلاء المقاتلة المطوعة أو الحرافشة كانوا يحظون بمنزلة اجتماعية مميزة نظرا لدورهم في الجهاد .

ولما كانوا بمثابة قوات خاصة متقدمة فقد كانوا مقربين من بعض الأَيوبيين ولا سيما في ايام الصراع الداخلي بينهم، ويبدو ان هؤلاء الحرافيش كانوا قد فقدوا دورهم القتالي

(1) نفس المصدر

(2) العبادي: الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية ،141

(3) الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ،218، تحقيق ناظم رشيد

،بعد زوال الدولة الأيوبية، وانضموا إلى جموع العاطلين والعوام الذين كانت القاهرة تكتظ بهم مع بداية العصر المملوكي [1] وانضم اغلبهم إلى الخوانق والربط والزوايا الصوفية التي اكثر منها المماليك ولذالك اقتران اسم الحرافيش بالصوفية او الفقراء _ لغة واصطلاحًا _ واحترف بعضهم التسول، حتى كان ينادي في شوارع القاهرة ((اي حرفوش شحت صلب)).. ربما حرصا من المماليك على هيبة هذه الجماعة المتصوفة الفقراء، او استقطابهم اليهم او لانهم كانوا يشكلون ثقلا اجتماعيا تخشاه الدولة .. لكثرتهم مثلا او لقدرتهم على التأثير في الناس .. عموما فان السبكي يقول حول انتشار ظاهرة الاستجداء بين الحرافيش ما نصه ((وكثير من الحرافيش اتخذ السؤال صنعة، فيسألون عن غير حاجة ويقعدون على ابواب المساجد يشحذون ولا يدخلون للصلاة معهم [2]

ومع ذلك ظلت الدولة المملوكية في بدايتها تقيم لهم وزنا وتحرص على اتقاء شرهم، فإذا ما مضينا نبحث عن الدور الذي لعبه الحرافيش في العصر المملوكي لا نجد إلَّا إشارات محدودة تدل على ان سلاطين المماليك وامراءهم، كانوا يتقربون اليهم في بعض المناسبات، فكانوا_ في فترات السلم _ يجمعون هؤلاء الحرافيش _ على كثرتهم _وتولون الانفاق عليهم أيام هذه المجاعات [3] أو في المواسم الدينية والأعياد [4] أو بمناسبة بدء تولي السلطة حيث يرسم بجمع الحرافيش " فأجتمع هناك السواد الأعظم من رجال ونساء ففرق على كل واحد منهم [5]"وكان الكثير منهم يموت من شدة البرد" [6] وقد وصف الصفدي هيئة أحد الرجال الصوفية فقال " شيخ مسن فقير حرفوش مكشوف الرأس منفوش الشعر عليه دلق رقيق بالي الخلق قد جمعه من عدة رقاع " [7] وهو أمر يذكرنا بطائفة اخرى من " الدراويش" الذين يسمون" بلقلندرية " وهم جماعة من الناس أشبه بالشطار "

(1) عاشور: المجتمع المصري في عصور المماليك ،37-40

(2) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ،136

(3) ابن اياس: بدائع الزهور، 85-86 ،197

(4) نفس المصدر ،742

(5) المقريزي: إغاثة الامة بكشف الغمة ،35

(6) الابشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف ،148/1-149

(7) الجبرتي: عجائب الآثار،10/5

الغجر" والفقراء وينتمون أحيانًا إلى بعض الفرق الصوفية " الفارسية " " الدراويش" وكانوا يحلقون الرؤوس واللحى والحواجب والشوارب، ويأكلون الحشيشة ويلبسون الطراطير ويصفهم ما أثر عنهم من شعر شعبي بأَنَّهم أَيضًا عراة أو لايرتدون إِلَّا الدلق [1] على نحو يذكر بشطار بغداد العراة وفقرائها العيارين، وفيما عدا ذلك لا يقدم ابن اياس وغيره شيئا ذا بال عن الحرافيش، فهم إذن في عصر المماليك ليسوا إِلَّا الفقراء القاهرة وعراتها وعاطليها، وبعبارة أدق وفي ضوء مشايخ الحرافيش الذي صاحب قانصوه الغوري (الاشرف أبو النصر قنصوه من بيبردى الغوري ولد سنة (850هـ / 1446م) آخر سلاطين المماليك قتل في معركة مرج دابق سنة (922هـ/ 1516م)) عند الحرب ليسوا سوى بعض الفرق الصوفية أو الدراويش التي ترافق الجيوش المصرية عند الغزو والجهاد[2] .

ولما كان معظم هؤلاء المتصوفة من الفقراء والسوقة وأصحاب الحرف السافلة على حد تعبير الجبرتي فأنه أطلق عليهم جميعا مصطلح الحرافيش [3] ولكنه عاد فجمع بينهم وبين طوائف اخرى في صعيد واحد من اللصوص والنهابة والخطافة [4] وأَنَّهم استحالوا إِلى فئة من اللصوص في بعض الفترات [5] ثم يعود فيعرف الحرفوش بأنَّه هو " العامل الذي يعمل بأجرة اليوم عملا غير ثابت وخصوصًا أَعمال الفلاحة [6] ... مما يشير إِلى أنهم عاطلون أو أجراء يعملون باليومية ... ومثل هذه الفئة على كثرتها ، أذا ما تعطلت أسباب الكسب بسبب الفتن أو المجاعات أو الازمات كانت أَوَّل من يتضرر بها، ومن ثم لا غرو أن تكون من أَوائل الفئات التي تبادر للنهب والسلب ... شأنهم في ذلك شأن ما يفعله العسكر أَنفسهم [7] وهو ما انتهى إِليه أَمر الحرافيش في عصره.

---

(1) ابن اياس: بدائع الزهور، 197

(2) ابن اياس: بدائع الزهور،615؛المقريزي: اغاثة الامة بكشف الغمة،35

(3) الجبرتي: عجائب الآثار ،10/5

(4) نفس المصدر: 26/5

(5) نفسه ،306/7

(6) نفسه ،276/7

(7) نفسه ،316/7

غير أَنَّ ابن تغري بردي يشير بصراحة إلى ان الحرافيش كانوا يتلصصون ... سواء هؤلاء الحرافيش الذين يصحبون عند الغزاة والجهاد أو إبان الفتن الداخلية ...فيذكر لنا أن الظاهر بيبرس " رتب على أبواب انطاكية جماعة من الأُمراء لئلا يخرج احد من الحرافشة بشيء من النهب ومن يوجد معه شيء يؤخذ منه" [1] ويطلق على هذا النوع من اللصوص الذين يرافقون الجيوش الاسلامية أسم " حرافشة المسلمين " [2] وأنَّهم ليسوا إلَّا فئة من تلك الفئات الدنيا" المطوعة " التي كانت تصحب الجيوش [3] وأنهم من فقراء الصوفية [4] وأن أعدادهم هائلة وأن بعض السلاطين كان يأنس بهم ويفرح للقائهم .

ومن هؤلاء أيضا، عند ابن تغري بردي، السلطان المنصور لا جين(الملك المنصور حسام الدين لاجين حادي عشر سلاطين المماليك توفي سنة (699هـ/1299م) وهو السلطان الذي " كان يحبه العامة وكان للحرافيش دالة عليه" [5] ولكن بعض السلاطين لم يكن يرى فيهم إلا جماعة من اللصوص، ففي ثورة العامة سنة 742هـ/1341 م التي تحولت إلى نهب وسلب لبيوت أمراء المماليك وحدهم يذكر ابن تغري بردي أن " قوصون (هو امير سيف الدين قوصون الساقي الناصري (743هـ/1342م) رسم بتسمير عدة من العوام، فسمر منهم تسعة على باب زويلة، ثم أمر بالركوب على العامة وقبضهم، ففروا حتى أنهم لم يقدروا على حرفوش واحد " وفي يوم آخر " سمر قوصون أيضا ثلاثة من الطواشية في عدة من الحرافيش على باب زويلة " بتهمة السلب والنهب [6] غير فتنة أخرى يحاول بعض الأُمراء المماليك – ايد غمش– أن يستقطب هؤلاء الحرافيش إلى جانبه في صراعه مع قوصون ... فكانت وسيلته إلى ذلك أن أباح لهم بيوته وبيوت أمرائه المماليك " فأقبلت عليه العامة كالجراد المنتشر لما في نفوسهم من قوصون فنادى لهم أيدغمش (هو من مماليك سيف الدين بن بان الطباخي وهو ممن ساهمه في إعادة الناصر

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة، 143/7

(2) نفس المصدر،305/7

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة، 153/8–169–170

(4) نفس المصدر، 88/8

(5) نفسه ،28/10–29

(6) نفسه ،28/10–62

إلى السلطنة وعين نائب عن حلب توفي سنة (٧٥٦هـ/١٣٥٥م) : يا كسابة عليكم بإسطبل قوصون فنهبوه " [1] والشاهد هنا أن يطلق على الحرافيش " العامة " مرة ثم " الكسابة " مرة اخرى بدلا من تلك المسميات التي تنطوي على الاستعلاء والازدراء كالحرافيش والأوباش والفقراء والسفلة، وسوف يجاريه ابن تغري بردي نفسه في وصفه هذه الثورة فقد كان متعاطفا مع الحرافيش، مؤيدا لما يقومون به من نهب وسلب إذ انه على الرغم من طول وصفه لهذه الفتنة التي قامت في جوهرها على السلب والنهب [2] لم يستخدم إلا لفظ " كسابة " على حين استخدم كلمات أخرى لوصفهم " كالنهابة والطماعة " في معظم كتبه .

ولم يكن هؤلاء الكسابة أو الطماعة والنهابة إلا الحرافيش أنفسهم ... مما يؤكد أن تلك الأحكام التي وصفت بها هذه الفئة كانت احكاما غير موضوعية أو بالأحرى طبقية .

وكانت هذه الفئة من العامة التي عرفت بالحرافشة، حين تفقد دورها العسكري، ويضعف شأنها الصوفي سوف تتحول إلى فئة من المتسولين والشحاذين في نهاية عصر المماليك ... وتسمى طائفتهم بطائفة الشحاذين، وتتخذ شكل نقابة لها شيخ أو كبير هو "كبيرهم شيخ الشحاتين " على حد تعبير الجبرتي الذي يؤكد ان أعدادهم كانت هائلة ومريعة في عصره [3] وأن ذلك لم يحل دون هجومهم – أبان المجاعات والازمات – على حواصل الغلال ووكالات القمح التي كان يمتلكها الأُمراء المماليك [4] مما يؤكد ما رواه السبكي من من أنهم احترفوا في النهاية – الاستجداء أو الاستكداء، وأنَّهم اتخذوا من السؤال صفة لهم . غير أن آخر دور شبه عسكري لعبه الحرافيش كان أثناء دخول الحملة الفرنسية مصر (حملة قادها نابليون برنابورت سنة (١٧٩٨-١٨٠١م) استمر الحملة ثلاث سنوات وانتهت بفشل الحملة)؛ إذ انخرطوا في سلك المقاومة الشعبية، إلى جانب الأُمراء المماليك دفاعًا عن مصر ... وفي وقت الذي عجز فيه المماليك عن نقل المدافع من داخل القاهرة إلى خارجها حيث معسكرات المقاومة . تطوع جمع عظيم من الأوباش والحرافيش والأطفال

(1) نفسه ،10/28-29

(2)نفسه ،10/28-29

(3) الجبرتي: عجائب الآثار ،1/274

(4) نفس المصدر: 1/302

ولهم صياح ونحاب وتحارب بكلمات مثل قولهم " الله ينصر السلطان، ويهلك فرط الرمان – لقب ساخر أطلقوه على قائد الحملة الفرنسية وغير ذلك [1] وهو الأمر الذي يشبه دور العامة من الشطار والعيارين في بغداد والبلاد الشام .

ففي عصر سلاطين المماليك وأثناء الحملة الفرنسية –كان كل حرفوش قطع رأسًا من رؤوس الأعداء الفرنسيين كان يذهب إلى قائد المقاومة لأجل البقشيش[2]، وهؤلاء الحرافيش اثناء المقاومة وجهوا بطشهم إلى المشايخ والعلماء الذين كانوا يوالون مع الفرنسيين ويتعاونون معهم في الظلام ويقبضون عليهم [3] ومعهم أوباش العامة وكانوا على درجة من الوطنية، وقد مضى معظمهم في نهب دور هؤلاء المشايخ والعلماء المتحالفين مع الفرنسيين فما كان من هؤلاء المشايخ إلَّا أَنَّ يحتموا بالمحتلين واتهام الحرفيش " واتهموهم عن الفرنساوية بأنَّ مرادهم النهب والسلب والتلصص... خصوصًا أنه ... ليس لديهم في مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال أو غير ذلك"[4]، وقد أثبت الحرافيش ثباتهم وأنضم إليهم بعض العلماء والمشايخ في حركتهم عن ايمان بدورهم الوطني، الأمر الذي لم يعجب المؤرخ الجبرتي ورأى فيه نفاقا لهؤلاء العوام الذين " لا يدركون عوا قب الامور وأتهم أي العوام – ليسوا بشيء (مثل الباشا والكتخدا والأُمراء) ويشكك في نوايا هؤلاء العلماء فيقول " لكنها الفتن يسنسر بها البغات لا سيَّما عند هيجان العامة وثوران الرعاع والغوغاء اذا كان ذلك مما يوافق أغراضهم" ثم يتمثل الجبرتي بقول المتنبي :

وذنب جره سفهاء قوم وحل بغير جانيه العذاب [5]

وحجة المؤرخ الجبرتي في تحامله على هذا الفريق من العلماء الذي انضم للعامة من الحرافيش ومن معهم من الزعر والأوباش والحشرات أن الكبار قد قبلوا الصلح مع المحتلين فما بال هؤلاء الصغار يرفضونه ... وبالتأكيد إن الكبار خوفا على مصالحهم قد

(1) نفسه، 303/1

(2) نفسه، 78/1

(3) نفسه، 109/5

(4) نفسه،110/5

(5) الجبرتي: عجائب الآثار، 121/5–122

قبلوا الصلح، في حين صمم الصغار على المقاومة فنقضوا ما وقع من صلح وأشعلوا نار الحرب من جديد. [1] .

وعلى الرغم من تحامل المؤرخ الجبرتي الذي كان معاصرًا للأحداث وأطلق عليهم " الأشرار" إلَّا أَنَّ روح المقاومة المستميتة للمحتل التي ابداها الحرافيش تبين مدى حسهم الوطني حين هرب زعماء المماليك خارج مصر وراح العلماء والتجار والذين يخافون على مصالحهم يهادنون المحتل ولم يبقى إلا صوت المقاومة الوحيد، ولم تكن أسلحتهم في المقاومة إلا النبابيت والحجارة [2].

ويذكر لنا ابن اياس شيئا عن تفاصيل ثورة الزعار – ومعهم العوام – على المماليك ... ففي فتنة سنة 769هـ/ 1367 م التي حدثت بين المماليك يقول ابن اياس : " ونزل السلطان وجلس بالمقعد المطل على الرميلة، وعلق الصنجق السلطاني، ودقت الكئوسات حربيًا فطلع غالب العسكر فأجتمع تحته في الرميلة الجم الغفير من الزعر والعوام وبأيديهم المقاليع والحجارة ... وكل هذا بغض في المماليك الذين قد التفوا على الأتابكي استدمر ومماليك يلبغا طرفي الصراع وقد جاءوا على الناس، وصار المماليك يهجمون على النساء في الحمامات ويخطفون قماش الناس من الأسواق، فتغيرت منهم القلوب وأبغضهم الناس فلما ركب الأتابكي استدمر ومماليك يلبغا للقتال لاقتهم الزعر والعوام بالحجارة والمقاليع فألقى الله تعالى في قلوب المماليك ومن كان معهم من الأُمراء، فأنكسر مماليك يلبغا أنجس كسرة وهرب الأتابكي استدمر ... وكان يظن انه ينتصر فصار الزعر والعوام يقبضون على كل من يرونه من المماليك ويعرونه ويقتلونه شر قتلة واستمروا على ذلك إلى آخر النهار .... واستمرت الفتنة إلى أوائل سنة 770هـ / 1368 م حيث حدثت واقعة عظيمة بين الفريقين وظن السلطان أنه مأخوذ لامحالة "ولكن السلطان لم يؤخذ فقد انهزم الفريقان، إن الذي انقذ السلطان وأخمد الفتنه هم هؤلاء الزعر الذين نهبوا بيوت المماليك وقبضوا عليهم .

(1) نفس المصدر: 5/122–132

(2) ابن اياس: بدائع الزهور،189–192

ولتأثير الزعر على المجتمع نلاحظ وصف ابن اياس لهم " فلم تكن إلَّا ساعة يسيرة، وكسر الأتابكي استدمر والأمير خليل بن قوصون وبقية الأُمراء الذين ركبو مع استدمر، فنهب العوام بيوتهم، وصار يمسكون مماليك يلبغا من الاصطبلات ويودعونهم في الحبوس، ثم قيدوا الأتابكي استدمر والأمير خليل وبقية الأُمراء ... وأرسلوهم إلى السجن بثغر الاسكندرية ،وأمَّا مماليك يلبغا فنفوا .

إنَّ دور الحرافيش في المجتمع أَنَّهم انتهزوا الخلاف بين طوائف المماليك الَّذي يؤدي إلى اثارة الفتنة، ومن ثم تدهور المجتمع في جميع الجوانب وضعف السلطة الحاكمة والجرأة على الأعراف التي تحكم المجتمع وضياع حقوق الناس، ففي الفتنة التي حدثت بين الملك الظاهر برقوق (السلطان الملك الظاهر سيف الدين برقوق ولد في القفقاس اصبح اتابكاً سنة ٧٧٩هـ وتوفي سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م) ونائبه في حلب الأمير يلبغا الناصري استطاع الناصري المجيء إلى مصر بجوشه سنة 784هـ / 1382م وطرد الظاهر برقوق ونفيه إلى الكرك والاستيلاء على السلطة، ولقد أَشارت عديدة نصوص إلى دور الحرافيش والزعار في المجتمع ومدى تأثيرهم في المجتمع ونلاحظ اتساع نشاطهم في فترات يكون فيه هناك خلاف بين الأُمراء وتنازع على المناصب؛ إذ يستعين بهم الأُمراء المماليك في صراعهم مع بقية الأُمراء للاستحواذ على أَموالهم الأَمر الذي يؤدي إلى حصول فوضى في المجتمع تؤدي إلى توقف غلق الاسواق وتوقف الحياة الاقتصادية .

لقد استطاع السلطان الملك الأشرف شعبان من هزيمة اللأمراء المماليك بالاستعانة بالزعر فيذكر ابن اياس الحادثة " فلم تكن ساعة يسيرة وكسر الأتابكي استدمر (الأمير سيف الدين استدمر نائب السلطنة على دمشق) والأمير خليل بن قوصون وبقية الأُمراء الذين ركبوا مع مع استدمر فنهب العوام بيوتهم، وصاروا يمسكون مماليك يلبغا من الاصطبلات ويودعونهم في الحبوس، ثم قيدوا الأتابكي استدمر والأمير خليل وبقية الأُمراء... وأرسلوهم إلى سجن بثغر الأسكندرية، وأَمَّا مماليك يلبغا فنفوا منهم وغرقوا منهم جماعة، وهرب منهم جماعة إلى بلاد المشرق وانتصر عليهم السلطان الملك الأشرف شعبان [1].

(1) ابن اياس: بدائع الزهور،189-192

ولعلَّ تحول دور الزعر من محاربة الظلم المتمثل باستبداد الأُمراء المماليك إلى دور المقاتلة والانضمام إلى السلطان والانحياز إلى فئة من الأُمراء الأمر الذي ادى إلى أن تغيرت منهم قلوب الناس وأبغضهم الناس ويتكرر هذا الموقف في كل فتنة تنشب بين الأُمراء وهم في كل مرة ينهبون بيوت أمراء المماليك وحاشيتهم وغلمانهم، حتى صار السلب والنهب هدفًا محددًا للزعار[1]، وتحوَّلت هذه الفئة أَن تفرض سيطرتها على المجتمع بالقوة والفتونة على حساب افراد المجتمع ولعل ما حدث في عهد السلطان برقوق بعد استيلائه على السلطة حيث وردت عدة نصوص تشير إلى دور الزعر ومتى يظهر نشاطهم ومتى يستعين بهم أمراء المماليك وسلاطينهم ...

فما يكاد الناس يحسون بتخاذل الظاهر برقوق حتى كثر كلام الناس وتجمع الزعر ينتظرون قيام الفتنة وكانوا يتربصون بالناس والمحلات والحوانيت لينهبوا الناس وتخوف كل واحد على ماله وقماشه "التجار الاثرياء "

References

- Al-Abadi: **Economic Life in the Islamic City**, 141
- Al-Baladhuri: **The Brief Book of Countries**, 239-240
- Al-Maqrizi: **Helping the Ummah by Revealing Grief,** 35
- Al-Abshihi: **The extreme in Every Extravagant Art**149-**148/1** ،
- Al-Jabarti: **Wonders of Antiquities**, 5/10
- Al-Sakhawi: **Al-Tabar Al-Masbouk,** 146
- Al-Hanbali: **Healing Hearts in the Virtues of Banu Ayyub**, 218, investigated by Nazem Rashid
- Ashour: **Egyptian society during the Mamluk eras**, 37-40
- Al-Sobky: **The Restorer of Blessings and the Exterminator of Resentment**, 136
- Biography of Al-Zahir **Baybars,** 1/206
- Ibn Battuta: **The Journey of Ibn Battuta**, 2/24

(1) ابن اياس: بدائع الزهور،189–192

- Saeed Ashour: **Egyptian Society in the Age of the Mamluk Sultans**, 38
- Ibn Ayas: **Bada'i al-Zuhur**, 85-86, 197
- Ibn Taghri Bardi: **The Brilliant Stars in the News of Egypt and Cairo**, 7/143
- Shawqi Abdul Hakim: **The Arabic Folk Tale,** 130-142

The Fatwa of Harafish, Zubara and Al-Ayaq in Egypt in the Era of the Mamluk Sultans and their Impact on the society

Shahim Faleh Hamid al-Sultan *

Abstract

The folklore dealt with the phenomenon of thieves, including thieves, chasers, bullets, boys, bulldogs, legacies, and haraves, and those with despised professions and their likeness of the destitute, the poor, the hungry, and the unemployed who were crushed by poverty and their unemployment, due to the poor management of the ruling leaders, and has combined them historically and socially in a social circle excluded from class and socially from social groups The highest, it is a group that lives on the margins of society, and it is in a state of conflict with this society that expelled them, so that they rejected their bitter reality, and rebelled against their society, and tried to revolt against it and they had an impact in those societies through the revolution against those in charge of it, to obtain in an illegal way What they perceive as a legitimate right for them. And they had a major role in the era of the Mamluk Sultanate, in imposing their reality in society.

Key words: Egypt - Mamluks - Sultans - Harafish - Zaar**.**

* **Lect/ Department of History/College of Arts/University of Mosul.**